العروبة السياسية واستقلالية منطقها

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربيًا .

وسوف أظل أدافع عن عروبتى أيضًا بقوة منطق الأشياء ، انظر يا بنى من حولك سوف تسمع الصراخ والعويل ، وسوف تسمع الجميع يتحدث عن التمزق العربى والتحلل العربى والفساد العربى ،وهو صحيح . ولكن هل هذا هو الوجه الوحيد للحقيقة العربية ؟ هل يستطيع أى محلل محايد أن ينسى أو يتجاهل النواحى الأخرى البراقة والساطعة التى سجلتها هذه المنطقة بفخر وشموخ خلال هذه الفترة التى نعيشها بكل ما فيها من تمزق وتهلهل ؟

تعال معى يا بنى نستذكر الأحداث :

أليست حرب الاستنزاف التى شنها « عبد الناصر » وهو محروق مهزوم وحيد لا نصير له حتى من رجاله الذين وقفوا حوله ، وهو زعيم مهاب بكامل صحته ، وتفرقوا عنه وهو مريض مدحور ، ولكن شعبه الوفى لم يتركه ، وأبى إلا أن يسانده بصلابة وقوة، هى قصة الإرادة المقاتلة المصرية تواجه أعداء الأمة العربية وحيدة إلا من ثقتها فى قائد عروبتها الأصيلة والحقيقية ؟ مَن من القادة العرب قدم يده إلى عبد الناصر ، وهو يفرض على شعبه وعلى جنده تمرينات قاسية لم يعرفها جيش آخر فى تاريخ الإنسانية ؟ وهل ثار شباب جامعات مصر وقد انخرط فى ذلك الجيش استعدادًا ليوم الثأر، يعيش على أكل الثعابين ويتدرب زحفًا على بطنه فى المستنقعات لأيام وليال ، بل ولأشهر كاملة ؟ لم تكتب بعد قصة حرب الاستنزاف ولكن عندما تسجل فسوف يعلم العالم

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 107 ، فى 27 آيار- يونيو - 1985 ص 26 وما بعدها .

العربى أن قيادة مصر لهذه الأمة لم تكن إلا بالألم والمعاناة والتضحية عن كبرياء أصيلة وقدرات حقيقية :جيش له تاريخه الصلب وطبقة مثقفة عرفت كيف تحافظ على كبريائها فى صمت ودون ضجيج ، إن قيادة مصر الحقيقية ليست ذلك الوجه القبيح الذى أحاط بالرئيس السادات فى لحظة معينة ، والذى لا يزال يحيط بخليفته ؛ ولكن هذه قصة أخرى سوف نعود لها فى موضع آخر .

وهل حرب أكتوبر فى حاجة إلى أن نعود لنُذكِّر بوقائعها ؟ ألم تقلب جميع موازين التعامل العسكرى فى تاريخ الإنسانية المعاصرة ؟ ألم يستطع جيش من المشاة أن يحطم جيشًا مصفحًا من الدبابات ؟ وألم يفرض على مخططى الاستراتيجية الأمريكية أن يستعيدوا جميع تعاليمهم عقب ما فعله أهل السويس[1] العزل بالدبابات والمصفحات الإسرائيلية .

وعندما خان « أنور السادات» الأمانة التى فى عنقه عن قناعة أو سذاجة وقفت القيادات المصرية الحقيقية قبضة واحدة فى وجهه ، نقابة المحامين تجتمع فى « القاهرة » وتقسم على محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، والمثقفون يساقون إلى السجون ، ومن استطاع منهم أن ينقل نشاطه إلى خارج «مصر » لا يتردد فى أن يغامر بحياته متحديًا طبقة المنتفعين الجديدة التى خلقها الاستعمار الجديد ، من هو الشعب الذى استطاع فى العالم الثالث وبإمكانيات « مصر» استطاع أن يرفع راية مثل هذا التحدى ؟ ومرة أخرى وقف شعب «مصر» وحيدًا دون أى نصير من أى أرض عربية ، فليجبنى أولئك المزايدون الذين تعودوا الأكل على كل مائدة !!

ثم هناك أيضًا قصة المقاومة فى «لبنان» ، وهى تذل لا فقط القيادة « الإسرائيلية » بل والامبريالية الأمريكية ، وتمرغ شرفها وكرامتها فى الأوحال ، هل هى فى حاجة إلى تفصيل؟

ثم هذه الحرب العراقية الإيرانية ، من كان يتصور شعبًا لا يتجاوز خمسة عشر مليونًا محدود القدرات الاقتصادية والتكنولوجية ، يصمد لمدة خمسة أعوام فى وجه الجحافل الإيرانية ويذيقها ذل الهزيمة ، ورغم أن خلفها تستتر المخططات الصهيونية ، بل وقوى رأسمالية عالمية مُعَينة ذات مصالح خفية التى يعلم جميع المحللين بحقيقتها وأبعادها ؟

---

(١) لقد رفض أهل السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامة الاستسلام ، وتصدوا للدبابات الإسرائيلية واصطادوا منها ٢٨ دبابة فى أربع ساعات .

وهذا الشعب السودانى يكمل هذا بأن يسطر صفحة أخرى براقة من القوة والشجاعة والتصميم لا تزال فى أول فصولها .

نعم يا بنى إننا لا نزال فى بداية التطور ، وثق أن القادم أكثر قسوة وأشد رهبة . «جولدمان » الزعيم الصهيونى الأشهر ، اعترف بذلك قبل مماته ، وقال كلمته المشهورة التى توج بها كتابه : «إلى أين إسرائيل ؟» «لقد استهانت القيادة الإسرائيلية بما تمثله القومية العربية من جذور تمتد فى تلك الأرض ذات التقاليد التاريخية » .

علينا أن نعرف أن قوتنا الحقيقية ، وهذا هو أحد الأهداف الأساسية التى يجب أن تسيطر على أى بناء متكامل للمفهوم القومى للعروبة السياسية فلنحدد منطلقاتنا الأساسية .

أ – هناك بعض الملاحظات يجب أن نبدأ بها وتستوجبها هذه المعاناة ، المستمرة فى الأخذ والرد حول المصير المستقبلى للقومية العربية :

أولاً : فأول ما يجب أن نذكر به ونكرره مرة أخرى ، أن مأساة الفكر العربى القومى الحقيقية ليست فقط فى أن كل من هب ودب يتصدى له بسطحية وسذاجة ، بل فى أن هذا الفكر القومى وخلال قرابة قرن من الزمان ، لم يستطع أن يقدم تصورًا واضحًا وشاملاً لكيفية تحقيق الدولة القومية الموحدة ، لم يعد الفكر القومى بل والأيديولوجية السياسية بصفة عامة مجرد فكر عاجىّ ، وإنما أضحى أساسه العناق مع الحركة ، بحيث يصير الفكر مقدمة للحركة ومحوره الأساسى بناء أساليب التعامل مع الواقع ، بحيث يتم تطوير ذلك الواقع للوصول من خلال مسالك معينة إلى ذلك النموذج المثالى الذى نسعى إلى بنائه وإذا كان البعض يريد أن يتعلم من خصومه فليذهب ليعيش مع الصهيونية فى مساراتها المختلفة منذ أول مؤتمراتها حتى اليوم ، وخلال قرابة ثمانين عامًا من التطور والتطويع المتتالى لأساليب التعامل ، فهل فهم معنى ذلك أولئك الذين يتشدقون بمناسبة وبغير مناسبة بالحديث عن القومية العربية ؟

ثانيًا : كذلك فإن مضمون القومية لا يمكن أن يكون واحدًا ، إنه يتحدد ويتنوع تبعًا لكل واقع ، وكما أن مضمون القومية يختلف من تطبيق لآخر فكذلك المفكر القومى لابد وأن تكون له أصالة فى التعبير عن ذلك الواقع ، من الطبعى أن الإطار العام قد يكون واحدًا أو قد يتشابه ، ولكن فى داخل ذلك الإطار العام المياه المتدفقة لا بد وأن يكون مذاقها مختلفًا ، ولو اقتصرنا على الفكر القومى فقد تعودنا أن نميز فى تطوره بصفة عامة بين مراحل ثلاث :

استقبال وهضم ثم إبداع . **المرحلة الأولى** تعنى تقبل المفاهيم الأخرى المستوردة .

المرحلة الثانية وتفرض هضم تلك المفاهيم وسحقها فى داخل الذات المستقبلة ثم تأتى المرحلة الثالثة حيث ننتقل إلى الإبداع والابتكار ، لو تابعنا الفكر العربى لوجدنا أنه حتى هذه اللحظة لا يزال عند الكثيرين من المتعاملين معه يعيش المرحله الأولى أى أن يستقبل ويجتردون حتى القدرة على هضم ما يستقبله .

لو قدر لنا شىء من الإبداع لكان علينا أن نفهم أن القومية العربية تملك مذاقها الخاص وأحد عناصر ذلك التميز وقد طرحناه من قبل هو أنها قومية مركبة . إنها من حيث طبيعة تكوينها الاجتماعية تتكون من طبقات متتابعة من الولاء ، وعلى الفكر القومى أن يفسر هذه الحقائق وأن يبنى بخصوصها إدراكه ويقنن قواعد التعامل مع ذلك الواقع ، بحيث يقدم لنا أساليب تحقيق الدولة القومية الكبرى من منطلق ذلك الواقع ورغم ذلك الواقع .

ثالثًا : كذلك فقد أثرنا فى مفهومنا فى أدوات التعامل ، نظرية الدولة القائد وهى «مصر» ورغم أننا لا نزال فى بداية الطريق ، إلا أننا نود أن نذكر بأن هذه ليست هى الأداة الوحيدة بل يجب أن تأتى إلى جوارها أدوات أخرى قد تنبع منها وقد تستقل عنها ، ولكنها دائمًا تتفاعل معها فى إطار واحد متكامل ، لابد وأن يتصف بالتناسق مع حركة الدولة القائد الإقليمية والجماعية .

ب – ناحية أخرى يجب على كل من يتصدى لبناء الفكر القومى العربى أن يدخلها فى اعتباره ، وأن يجعل منها منطلقه فى تحليل فهمه للواقع السياسى الذى نتعامل معه ، وهو الإجابة على هذا التساؤل : ما هى حقيقة التطور الذى تعيشه الإنسانية المعاصرة وعلى وجه التحديد منذ تلك الفترة التى بدأت تبرز من خلالها ملامح تفجرُّ العروبة السياسية فى دلالتها الحديثة ؟ الإجابة على هذا السؤال سوف تسمح لنا بطرح **التساؤل الآخر :لماذا الخوف من المنطقة العربية ومن أهل هذه المنطقة ؟**

هناك حقائق ثلاث نستطيع أن نكتل حولها التطور الذى تعيشه الإنسانية منذ انفجار الثورة الفرنسية أو الثورة الكبرى ، التى افتتح بها القرن التاسع عشر ، قصة الوجود المعاصر والتى لا نزال نعيش نتائجها ، لقد عودتنا كتب التاريخ الحديث عن ثورة الإنسان ضد الظلم والعبودية ، وعن الثورة التى أعلنت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة وعن الانفجار الذى أعاد للإنسان كرامته وللفرد إنسانيته وللوجود الإنسانى معناه المثالى وجوهره النقى ومع ذلك فأين الحقيقة من كل ذلك ؟ ومتى يخرج من أبنائنا من يكتب قصة التاريخ بلغة الوثائق فى معناها الحقيقى[1] ، ويُبرز الخفايا التى تعودنا أن نمر عليها مر الكرام دون وقفة تأمل ، ودون

(1) مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، القاهرة 1983 ، صـ 86 وما بعدها .

الغوص فى أعمـاق التطورات نسألها ونستلهم من ثناياها مـا تواصت الأقلام الأوربية على إحاطته بسياج من التجهيل ؟

فلنتابع هذه الخبرة نستقرئ معالمها الرئيسة ونحن نحدد منها موضعنا :

أولاً : حقـيقـة التطور الذى عاشـته الأسرة الأوربـية خلال النصف الأول مـن القرن التاسع عشر - بصفة خاصة- والذى ظل ولا يزال يسيطر على أغلب التطورات الدفينة التى يخضع لها المجتـمع الذى ينبع من مفهوم واحد ، رفض التقاليـد الدينية وطردها من الحياة السياسية ، جميع التقلبات التى خـضع لها المجتمع الغربى لم يكن لها سوى معنى واحد : إلغاء الوجود الكنسى فى الحياة العامة وتقليص العلاقة بين الحاكم والمحكوم إلى مجرد رابطة مدنية لا مـوضع فيها لأى دلالة تسـتمد وجودها من أخـلاقيات التعاليم المنزلـة . التعاليم فإعطاء «ما لقيـصر لقيصر وما لله لله » ليس له سـوى دلالة واحدة : إبعاد الدين وكل ما يمـثله من الحيـاة اليومـية ، وإكـراهه على أن يصيـر وجودًا رمـزيًا . ترى هل هى الديانة المسيحيـة التى لم تستطع أن ترقى بالإنسان الأوربى إلى مصاف الرجل العربى فى شفـافيته وتقديسه لمفاهيم الخضوع والطاعة للتعاليم الربانيـة ؟ الحضارة الغربية تؤكد وبلا حياء منذ ما يسمى : عصر « حضارة النهضـة » أن سعادة الفرد لن تتم إلا عندما يزيل عن جسده تلك الملابس الممزقة التى شوهت وجوده باسم الانتماء الدينى .

ثانيًا : كذلك فإن التطور الفكرى الذى انتهى بالانفصام السياسى بين المجتمع الأوربى الرأسمالى ، والمجتمع الاشتراكى الشيوعى ، لا يجوز أن يخفى الحقيقة المستترة خلف ذلك التناقض والتعارض ، كـلاهما حقيقة غـربية ، وكلاهما تعبـير واستمرار للمفـاهيم الغربية واللصيقة بحضارة عصر النهضة الأوربى . إن ما فشلت فى تحقيقه الثورة الفرنسية هو الذى حقـقته الثورة الشـيوعية ، ومـا كانت اليسارية السـوفياتيـة قادرة على أن تتكامل فى نظام سياسى مـتناسق ، لو لم تقدم لها حضـارة عصر النور والعقل « العـقد الاجتمـاعى » كما صاغـه « روسو» الفـرنسى ، من أين نبـعت مفاهـيم « كارل ماركـس » ؟ أليست التـقاءً وتفاعلاً بين المدرسة الاشتراكية الفرنسية ، والمعاناة العمالية البريطانية ، وقد تبلور كل ذلك من خلال قنوات القومية الألمانية ؟ استمرارية وترابط يبرز أكثر وضوحًا عندما تخلق العلاقة المنطقـية بين هذه الملاحظة ومـا سبـق وذكرناه ، أليـست الثورة الفـرنسيـة وكذلك الثـورة الشيوعـية تنتهى بطرد المثاليـات الدينية من الوجود السياسـى ؟ وخلف ذلك تستتر حقـيقة أخـرى أشـد خطورة : المادية المطلقـة والمتـحكمـة فى كـل ما له صـلة بالسلوك الفـردى

والجماعى، إنها تنظير للوجود السياسى باسم الديالكتيكية فى المفاهيم الماركسية ، ولكنها سلوك وممارسة باسم الرأسمالية فى تقاليد الحرية البورجوازية .

ثالثًا : رفض التقاليد الدينية من جانب ، وسيطرة النظرة المادية من جانب آخر ، ثم اكتمال مفهوم القومية السياسية ، بمعنى التفوق العنصرى من جانب ثالث . عناصر ثلاثة خلقت ذلك الإطار اللازم لسيطرة مفاهيم الغزو الاستعمارى فى التعامل مع الشعوب ، إن **الثورة الفرنسية التى قامت على أساس الحرية والإخاء انتهت برفع علم الظلم ، والحضارة الغربية التى جاءت تخرج الإنسان من ظلامة العصور الوسطى أدخلت الرجل غير الأوربى فى دهاليز الاستبدادية والعبودية القانونية ، والقيم الأوربية وهى تعلن عن عالمية الإنسان لم تفعل سوى أن تدمج حضارة العنصرية فى عنصرية الحضارة . إن جوهر القرن التاسع عشر،** ليس فقط فى القطيعة الخفية مع التقاليد الدينية والأخلاقيات المثالية ، بل هو أساسُ تلك العودة غير المعلنة إلى تقاليد الإلحادية «الرومانية» بما قامت عليه من عنجهية القوة وسيادة مفاهيم التعصب . إن «شيشرون» الذى كان يزهو بقوله : «إننى رومانى ولست فى حاجة لأن أتعلم من أحد» ، أضحى هو قاموس القومية الفكرية الأوربية ، ومفاهيم « أرسطو» عادت لتتبوأ الصدارة ، بدعوى حضارة عصر العقل والنور ، وهكذا الفيلسوف اليونانى الذى يؤكد بطمأنينة وبساطة أن الطبيعة قصدت أن تجعل من البرابرة عبيدًا ، وليس على اليونانى سوى أن يحترم تلك القوانين . صاحب هذا الفكر جلس على مقعد الصدارة الفكرية ، بل ونسى الفكر الأوربى جميع المفاهيم الكاثوليكية التى قامت عليها نفس الحضارة الأوربية ، أين تعاليم القديس « بولس » من تأكيد المساواة بين أهل الكتاب وأولئك الذين لا يؤمنون ، لأنهم رغم ذلك مرآة لعظمة الإله ؟ وهكذا فإن الفشل الذى منيت به القيم الكاثوليكية مع الثورة الفرنسية مزدوج ، ليس فقط فى رفض قدسية التعاليم المسيحية، بل وفى الانطلاقة نحو عصر الجاهلية الأوربية ، ولكن وقد أضفى على تلك الجاهلية رداءً فضفاضًا من المثالية المزيفة .

هذه المقدمات كان لابد وأن تقود إلى مجموعة من النتائج ، أولها وأخطرها : هو كيف أن حضارة القرن التاسع عشر قامت على مبدأ العنصرية ، سيادة الرجل الأبيض الذى تجمعت فى شخصه جميع عناصر السمو والارتقاء هى التى بررت وحددت جميع العلاقات السياسية بين القارة العجوز وباقى أجزاء العالم ، أليس هو المتميز حضاريًا وتاريخيًا وعنصريًا ؟ إنه الرجل الأبيض الأوربى الذى تجمعت فى تراثه جميع الحضارات الكبرى – اليونانية والرومانية والكاثوليكية .

فهل هذا التطور - بهذه الخصائص الواضحة - هو الذى عاشته المنطقة العربية ؟ هل تطورنا القومى أساسه طرد الدين من حياتنا اليومية ؟ وهل دلالة وجودنا هو سيادة المادة على أى قيمة روحية؟ وهل نحن عنصريون نؤمن بمفاهيم التفوق العرقى ؟ أم أن تطورنا يملك منطقًا آخر متميزًا .

السؤال فى حاجة إلى إجابة واضحة وصريحة » .

obeikandl.com